الفصل السابع عشر

الثقل السكانى

وأثره على عيذاب وسواكن

عند دخول المسلمين السودان

في العهود الأولى من اتصال العرب المسلمين بالأراضي السودانية كان الثقل السكاني والنشاط التجاري قد استقر في صعيد مصر وصحراء البجة حيث كانت كثافة السكان العرب كبيرة ، وكانت لذلك التجارة والزراعة والتعدين كلها تسير بنشاط عظيم جعل المنطقة تعج بالحركة التجارية .

كذلك كانت تجارة السلع الهندية وبضائع السفن اليمنية وحاصلات شرق إفريقيا تتقاطر كلها إلى عيذاب لتسير منها إلى قوص ، ثم شمالا إلى الإسكندرية فبقية الأراضى الأوربية .

غير أن سياسة المماليك في اضطهاد القبائل العربية جعلت الكثير من هؤلاء العرب ينزحون بشكل مستمر إلى داخل الأراضى السودانية مع البعثات الحربية التى كان ينظمها المماليك ضد النوبة ، وأحيانا ضد أمراء سواكن كما حدث عند مطاردتهم لأمير سواكن علم الدين الأصبعانى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م .

نجد كذلك أن العرب ، سواء أكانوا أفرادا أم جماعات أم قبائل ، قد أخذوا في التوغل في مملكة البجة وصولا إلى أراضى مملكة علوة الفسيحة

النائية عن أيدى المماليك . ويذكر اليعقوبى وابن حوقل [11] أن تجار المسلمين كانوا يعرفون مملكة علوة " ويختلفون إليها في تجاراتهم . " وقد وجد هؤلاء التجار العرب المسافات بعيدة بين مملكة علوة وعاصمتها سوبة وبين ميناء عيذاب في أقصى الشمال الشرقي ، ولذلك فانهم كانوا يبحثون عن البديل الأقرب إلى موقع تجارتهم في مملكة علوة . وقد وجدوا البديل المناسب في سواكن التى أخذت تعمر شيئا فشيئا ، وتمتص الكثير من التجارة السودانية في بادئ الأمر ، ثم ما لبثت أن أصبحت مركزا تجاريا عالميا هاما . وكانت الملاحة في البحر الأحمر على شئ من الخطورة لوجود الشعب المرجانية فيه ، ولذلك فقد كان ربابنة السفن الشراعية يبحرون في أثناء النهار ، ثم يرسون بسفنهم في أحد المراسى عند الليل [12] حتى لا تصاب سفنهم بعطب من جراء اصطدامها بالشعب المرجانية .

وعند اشتداد الضغط المملوكي على العرب في صعيد مصر ، وتوجههم أمام تلك الغزوات إلى أراضى البجة ، فإن الحركة قد ازدادت حيوية ، وبالتالي ازداد الاتصال بين جدة وسواكن وسائر أقاليم مملكة علوة . وهكذا نجد أن سواكن أخذت في الازدهار، بينما أخذت عيذاب في الانهيار. غير أن هذا الانهيار لم يحدث سريعا لأن كلا المرفأين عايش الآخر فترة من الزمن تبلغ حوالي أربعة قرون . وقد بدأ هذا الازدهار يلوح في الأفق أيام السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م حين تدخل في شئون سواكن ، وأرسل حملة عسكرية للقضاء على الشريف علم الدين الأصبعانى

---

[11] توفى اليعقوبى سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م ، وتوفى ابن حوقل سنة ٣٥٠هـ / ٩٥٦م . وهذا يعنى أن توغل العرب في أراضى علوة كان قبل ظهور المماليك بحوالى ثلاثة قرون أو أكثر .

[12] محمد صالح ضرار – تاريخ سواكن والبحر الأحمر ص ٣٥ .

أمير سواكن بذريعة أنه كان يأخذ أموال التجار الأجانب الذين يموتـون دون أن يكون لهم وريث في سواكن ، بينما كـان يهـدف هـذا السـلطان في واقـع الأمر إلى فرض سيطرته السياسية علـى تجارة سـواكن الرائجـة التـى كـانت تتقاطر بين سائر أنحاء مملكة علوة النوبية وبين الحجاز من جهة ، وبقية أنحـاء العالم من جهة أخرى . وقد كان بعض تجار مملكة علوة ممـن يعيشـون في نهـر القاش يسافرون بتجاراتهم إلى مكة المكرمة عـن طريـق سـواكن وجـدة كمـا كانوا بحكم دينهم الإسلامي يذهبون لأداء الفريضة .

وكان السلطان بيبرس (٦٦٢هـ / ١٢٦٣م) مهتما بهدوء الطريق التجاري وأمنه ، لأنه عندما قام الخلاف بين قبيلة جهينة ورفاعة بالقرب مـن سواكن طلب من الشريف علم الدين أن يصلح بين القبيلتين وألا يعين طائفة على أخرى حرصا منه علـى أن تكـون الطـرق التجاريـة بمـأمن مـن إغـارات القبائل الساخطة . وكان ذلك في سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م .

لهذا فقد أخذت سواكن تـزداد أهميـة في عيـون الأشـراف بالحجـاز الذين أخذوا في الاستيلاء عليهـا بـالتزاوج مـع البجـة ، وفي عيـون المماليك الذين كانوا لا يرون غنى عنها . وبالرغم من بعدها عن مصر إلا أنهم كـانوا لا يجدون صعوبة في إرسال الجيوش من قوص إليها برا وبحرا مع ما يحتاج إليه الجند من زاد ومؤن وماء عن طريق إرسال ذلك بالبحر من القلزم .

وكانت سواكن في أيام ابـن بطوطـة (٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) تحـت سلطان الشريف زيد بن أبى نمي . وكان أبوه شريف مكـة ، وأخـواه عطيفـة ورميثة من بعده . وكانت لهـا أهميتهـا التجاريـة القصـوى للأشـراف الذيـن كانوا حكام الحرمين الشريفين وينبع وجـدة . وكـانت لمصـاهرتهم في البجـة آثار طيبة على سلامة الطريق للحجـاج إذ لم يحـدث أن هـاجم البجـة قوافـل

الحجاج عبر أراضيهم كما كانت تفعل القبائل العربية في طريق الحاج بالجزيرة العربية شمالى المدينة المنورة أو شرقيها . ولعل هذا كان من أهم ما قام به الأشراف العلويون في سبيل جعل طريق حجاج مسلمي إفريقيا في مأمن من النهب والسلب والاختطاف والاسترقاق لأن هؤلاء البجة كانوا هم حراس قوافل الحجاج ، وضمان أموالهم وتجارتهم ، كما كانت كلمة زعمائهم مسموعة عبر كل أراضيهم وتستظل بأولئك الأدلاء الذين كانوا يسيرون بهم عبر أراضيهم الشاسعة . وكان بمجرد أن يذكر الدليل بلغته البجاوية لرجال قبائله بأن أولئك المسافرين قد أعطى لهم الأمان ابتعد الناس عن إيذائهم .

وقد تدفقت سيول القبائل العربية في أراضيهم منذ بداية الرحلة العربية إلى إفريقيا ، فرأينا كيف أن سائر القبائل العربية قد استقرت في أراضيهم ، وتزاوجت فيهم ، وصاهرتهم ، وأصبحت جزءا منهم ، كما أنها وجدت الطريق مفتوحة لتسير إلي أواسط السودان للاستقرار في مراعيه الواسعة ، وأراضيه الخصبة . وكانت هذه القبائل العربية التى استقرت في إقليم البجة كثيرة فمنها ربيعة ومضر واليمانية من بلي وجهينة وغيرهما ، ومن القبيلة الشامية سعد العشيرة ، ومن بنى كاهل ،وأبناء عمومتهم دغيم ، وبعض القرشيين والأشراف بصفة خاصة . واستوطن كثير من هؤلاء مع البجة ، ثم ما لبثوا أن أصبحوا جزءا منهم . فمنطقة البجة كانت تمتص كل عربي يصل إليها وتجعله جزءا منها . وكان هذا الاستقرار قد حدث قبل قرون من الاضطهاد المملوكي إذ كان سلميا عن طريق التجارة والتعاون .

وكانت فترة العبور بالسفن من جدة إلى عيذاب أو سواكن تستغرق يوما وليلة إذا كانت الريح طيبة ومواتية . وكان هذا سفر يقصر المسافات

التى يحتاج المسافر إلى قطعها برا إذا ما تابع سفره شمالا نحو القلزم ثم عرج جنوبا لهذه الموانئ . وبسبب هذه المسافة التى قصرت ازداد عدد السكان العرب في إقليم البجة . وكان من بين القبائل التى حطت الرحال هناك بنو هلال وكنانة ودغيم وبنو كاهل وهوازن وغيرهم مما جعل الإقليم يعج بهؤلاء الأعراب الذين قدم بعضهم من الحجاز ، وجاء الآخرون من مصر .

ولقد رأينا الآن أن نمتع ذهننا بمصاحبة كل من هذه القبائل على حدة أثناء دخولها السودان سواء أكان دخولها عن طريق البحر الأحمر ، أم الصعيد الأعلى في مصر ، أم شمال غربي إفريقيا . وسنقضى وقتا قصيرا مع كل من هذه القبائل والعشائر والبطون .